كتب السيرة النبوية

تكون كتب السيرة العنصر الثالث فى العناصر المكونة لهـذا العصر الذى نسميه بعصر التجميع فى الرواية العربية .. فبينما نرى كتبا تذهب الى جمع الأساطير والروايات العربية كجزء من التراث الأسطورى والفنى العربى ودون أن تعنى عناية حقيقيـة بتطويع القصة أو الأسطورة لمضمون دون آخر ممثلة فى كتـاب التيجان لوهب بن منبه .. نرى كتبـا تذهب الى جمع الأساطير والروايات قاصـدة بهذا الجمع اثبات المضـمون الاسـلامى ، ومستعينة بالقصة لتثبيت المعانى الجديدة التى جاء الاسلام لينشرها، وهى والحال هذه لا تتعارض على الاطلاق مع القصص القرآنى، بل تكاد تكون امتدادا له وتكملة ، فاذا ما تعرضت لقصص ليس بالقرآن فهى تضع فيـه من الدلالات ما يتفق والقـرآن ، وهذه الكتب تتمثل فى كتاب عبيد بن شرية الجرهمى الذى يحكى مجالسه مع معاوية بن أبى سفيان .. هذان كمـا ترى اتجاهان فى جمع الحكايات العربية والأساطير المتوارثة ، أما الاتجـاه الثالث فهو الذى يتمثل فى كتب السيرة ، ولعل قمتها هو كتاب السيرة النبوية لابن اسحق الذى رواه ابن هشام ..

ونحن حين نضم كتب السيرة الى الأعمال القصصية انهـا

تستند الى طبيعة هذه الكتب ومنهجها كما نستند الى تاريخها وتطورها ..

فالعرب قبل بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم لم تكن لهم من مادة للتاريخ الأسطورى والقصص الا ما كان شائعا بينهم من اخبار ملوكهم واجدادهم الأولين ، وما فى حياة هؤلاء من أحداث اتسمت اغلبها بالسمة الأسطورية وغلفتها الخرافة الى حد كبير .. ولعل اكثر هذه الأحداث ما عرفوه عن طريق اليمنيين من قصص تتعلق بملوك اليمن وأبطالها . ونستطيع أن نضيف الى هذا كله أيام العرب وحروبهم وما دار حولها من حكايات .. الا أن هذا كله مهما حاول القصاصون والمؤرخون أن ينقوه من السمات الجاهلية فلا شك انه ظل يحمل فى طيانه روائح المعتقدات الجاهلية والتقاليد الجاهلية .. ولذلك لم يكن من العجيب أن يتجه القصاصون المسلمون بجهدهم الفنى الى المورد الجديد الذى اتاحته لهم دعوة محمد (ص) . وما روى الصحابة والتابعون من أحاديث عن ولادته صلى الله عليه وسلم ، وعن حياته وكفاحه ، وماحفلت به هذه الحياة من حركة وجهاد واصطدام بأهل الشرك . فهذه المادة الفنية الزاخرة ليست مصدرا ثريا وحسب ، بل هى مصدر يتفق مع الروح الجديد الذى ملأ أعطاف الأمة العربية بعد الاسلام. ويتلاءم كل التلاؤم مع رغبات المتلقين الذين شغلوا بالاسلام عما عداه ، فكان أقرب الى قلوبهم أن تكون الأعمال المقدمة لهم أعمالا تقوم على صاحب الدعوة وعلى أحداث الدعوة ..

واذا كان هـــذا السبب الذى أوردناه يعتبر سببا منطقيا فهناك سبب تاريخى دفع الى هذا الاتجاه القصصى فى سرد سيرة النبى واحداث حياته .. ذلك ان القرن الهجرى الأول مضى جميعه دون أن تدون الأحاديث النبوية تدوينا له صبغة رسمية ، ولعلهم تحرجوا أن يفعلوا ذلك فيجعلوا الى جوار كتاب الله كتابا آخر .. فقد روى عن الزهرى أنه قال : أخبرنى عروة بن الزبير أن عمر بن الخطاب أراد أن يكتب السنن ، واستشار فيه أصحاب رســـول الله ، فأشار عليه عامتهم بذلك ، فلبث شهرا يستخير الله فى ذلك شاكا فيه ، ثم أصبح يوما وقد عزم الله له ، فقال : « انى كنت ذكرت لكم من كتابة السنن ما قد علمتم ، ثم تذكرت فاذا أناس من أهل الكتاب من قبلكم قد كتبوا مع كتاب الله كتبا فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله ، وانى والله لا ألبس كتاب الله بشىء » ..

فأنت ترى تحرج عمر من تدوين الحديث .. والمعـــروف أن الحديث لم يدون فى عهد النبى صلى الله عليه وســـلم كما دون القرآن ، بل لقد جاء فى الأحاديث نفسها ما ينهى عن تدوين الحديث، منها ما رواه مسلم فى صحيحه عن أبى سعيد الخدرى انه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . « لا تكتبوا عنى ، ومن كتب عنى غير القرآن فليمحه ، وحدثوا عنى فلا حرج ، ومن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » ..

وهكذا نرى القرن الأول يمضى بأجمعه وليس هناك كتاب يجمع آثار الرسول ويقدمها للناس ، انما كل ما فى الأمر أن الصحابة

يحفظون ويروون .. وكان لهـذا الحجر أثره ، فمع حاجة الناس الى أن يعرفوا من أمر حياة رسولهم الشيء الكثير ، ومع هـذا الحظر على كتابة الأحاديث وتدوينها نشأ هذا الاتجاه الى التدوين التأريخى الغاية ، القصصى القالب الذى اتجه اليه الكثيرون .. ولعلهم وجدوا فى تدوين ما يتعلق بالنبى وحياته وغزواته ما يحقق ما فى نفوسهم ونفوس المتلقين لمـا يكتبون من تعلق بالرسول ، وحب لتخليد آثاره .

ولذلك لم يكن عجيبا أن يـكون من أول المتصدين لـكتابة السيرة أناس ممن اشتهروا بكتب القصص والأساطير كوهب بن منبه الذى كتب فى المغازى كتابا حفظ حلية الأدباء قطعتين منه ، واحدة تتناول فتح مكة ، والثانية وفاة النبى . ويذكر الأستاذ مصطفى السقا فى مقدمة سيرة بن هشام أن فى مدينة هيدلبرج بألمانيا قطعة من هذا الكتاب ، ويقول الدكتور حسين نصـار فى كتاب نشأة التدوين التاريخى ان هذه القطعة تتناول تاريخ العقبة الكبرى واجتماع قريش فى دار الندوة والهجرة وغزوة بنى خيثم « مما يدلنا على أن وهبا تناول الفترة المكية والمدنية من حيـاة الرسول » .

الا أن الظاهرة الأساسية فى تدوين كتب السيرة أن معظم القائمين عليها كانوا من المحدثين كعروة بن الزبير بن العوام الذى جاء ما دونه على هيئة رسائل الى عبـد الملك بن مروان جاءنا بعضها عن طريق ابن اسحق والواقدى والطبرى .. ويقول عنها الدكتور نصار انها تمثل أقدم المدونات التى وصلت الينا عن بعض

الحوادث الخاصة فى حياة النبى ، ولم يعن عروة بجمع الأخبار عن حياة النبى فحسب ، بل عنى أيضا بحوادث الخلفاء الأولين أيضا فتراه يعالج وقعة القادسية واليرموك وبعض حوادث فتوح الشام، ويعنى عروة أيضا بتاريخ الزبيريين . ولذلك ترى جميع أخبار الحزب الزبيرى وحروبه وفتنه مروية عنه فى كتب التاريخ .. وكذلك اشتهر بالتأليف فى المغازى أبان بن عثمان ، وعاصم بن عمر الذى يقول عنه ابن قتيبة انه صاحب السير والمغازى ، والزهرى الذى يقول عنه الأغانى ان خالد بن عبد الله القسيرى أمره بكتابة السيرة له ، وموسى بن عقبة ومعمر بن راشد ثم شيخ رجال السيرة محمد ابن اسحاق .

وهذه الكتب كلها يذكر عنها المؤرخون أنها عنيت بالشعر ونماذج الخطب والرسائل . ومن بعض النماذج التى نقلتها لنا الكتب المتأخرة عن هذه الكتب نجد أنها تكاد تشبه فى تأليفها وصياغتها كتاب وهب وكتاب عبيد .. وليس هذا بعجيب فالعرب كما عرفنا من قبل قد عرفوا هذه الطريقة الروائية فى نقل تاريخهم مازجين اياه بألوان من الأساطير ، ومغلفين أحداثه بخيالهم الذى يخلق المواقف الروائية بين الأبطال خلقا ، ويجرى على السنتهم الحوار الشعرى حينا ، والحوار النثرى المصنوع حينا آخر .. ووصلة الهمز بين العملين ، روائى كوهب يتناول حياة الرسول ومغازيه .. ولسنا نحسب أن وهبا فى هذه المغازى يخرج على منهجه الذى استنه فى كتابه التيجان ، وانما الأقرب الى العقل والمنطق أن يكون منهجه فى كلا العلمين واحدا لا يتغير .

فالسبب الثانى اذن هو ما حاول به الكتاب أن يسدوا من ثغرة يحسونها اذ يمنعون عن رواية الحديث فلجأوا الى تدوين أحداث السيرة معتمدين على ما شاهدوا وحفظوا من أحداث حياة الرسول ، وناهجين النهج الذى تعودوه فى التأليف أعنى النهج القصصى .. وكتاب ابن اسحاق يسير على نهج كتاب وهب ابن منبه من بدء بتاريخ الأنبياء من آدم .. الا أن بن هشام حين قدمه لنا انتهج نهجا خاصا فى عمله بالكتاب ، ويصدر ابن هشام كتاب السيرة بما يكشف عن دستوره ومنهجه يقول :

« وأنا ان شاء الله مبتدىء هذا الكتاب بذكر اسماعيل ابن ابراهيم ، ومن ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم من ولده ، وأولادهم لأصحابهم ، الأول فالأول ، من اسماعيل الى رسول الله (ص) وما يعرض من حديثهم ، وتارك ذكر غيرهم من ولد اسماعيل على هذه الجهة للاختصار ، الى حديث سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتارك ما يذكره ابن اسحاق فى هذا الكتاب ، مما ليس لرسول الله (ص) فيه ذكر ، ولا نزل فيه القرآن شىء ، وليس سببا لشىء من هذا الكتاب ولا تفسيرا له ، ولا شاهدا عليه ، لما ذكرت من الاختصار ، وأشعارا ذكرها لم أر أحدا من أهل العلم بالشعر يعرفها . وأشياء بعضها يشنع الحديث به ، وبعض يسوء بعض الناس ذكره .. »

وهذا المنهج يحدد مكان قصص السيرة من أنواع القصص فى عصر التجميع هذا ، فهى كما ترى تلتزم التزاما بسيرة الرسول ،

تحكي عمن سبقوه ماله علاقة بميلاده وما يعد مقدمه لبعثته .. فهى كما ترى تروى التاريخ منذ اسماعيل متتبعة من له علاقة بشجرة النسب التى ينتسب اليها الرسول .. فاذا تركت هذا فانما الى احداث تعد ضرورية لفهم رسالة الرسول كدخول اليهود الى الجزيرة ، ثم دخول النصرانية .. ثم ما بين الدينين الكتابيين من صراع،وما بينهما مجتمعين وبين الوثنية من معارك لاتنتهى، بل قصة الوثنية نفسها وكيف عرف العرب الأصنام فأشركو بعد أن كانوا موحدين على ملة ابراهيم عليه السلام .. ولا شك أن كل هذا له قيمته وأهميته فى التمهيد للحديث عن الرسول وبعثته .. الا أن اعتماد كتب السيرة فى رواية هذا الجزء المهد للسيرة نفسها انما كان يقوم على نفس المصادر الذى اعتمدت عليها كتب الروايات والأساطير ككتاب وهب وكتاب عبيد ..

واذا كان وهب جمع كل شىء دون التقيد الا بالتسلسل التاريخى ، واذا كان عبيد قد التزم فيما يجمع بمضامين تتمشى مع الدين الجديد ، فان ابن هشام كما ترى يلتزم التزاما بجمع ما له علاقة بالرسول فى نسبه ، أو بالرسول فى رسالته .. فاذا ما تعرض لأحداث تاريخية أو أسطورية لا علاقة لها بنسب الرسول أو بالحركة الدينية فى الجزيرة مر بها مسرعا . فهو يتناول تاريخ اليمن بما له علاقة باشارات القرآن العديدة الى هذا التاريخ ، كعاد واهل الأخدود وأصحاب الفيل .

وكتب السيرة هذه نلمح فيها جميعا ظاهرة هامة وهى

الاهتمام بالمغازى .. بل ان الاسم الذى عرف لهذه الكتب فى اول الأمر هو اسم المغازى . فوهب وأبان بن عثمان وعروة بن الزبير وعاصم بن عمر يشتهرون جميعا بأنهم من كتاب المغازى .. ومعنى هذا انهم يتتبعون حياة الرسول خلال المعارك التى خاضـــها . والواقع ان كل كتب السيرة حتى التى تناولت من حيـــاة الرسول اكثر من قطاع وقفت كلها عند المغازى وقفة طويلة .. وهـــذا الاتجاه يكشف عن ما تحاوله هذه الكتب من وصل لتاريخ العرب القديم بتاريخهم الحديث .. وتاريخ العرب القـــديم سلسلة من المعارك والغزوات ، فكان من الطبيعى أن يلتفت العرب فى تاريخهم الحديث الى الغزوات والمعارك .. ولا عجب ان تبلورت فى نفوسهم شخصية الرسول (ص) لتحل تدريجيا مكان أبطالهم الأسطوريين الذين ينسبون اليهم القوة والقدرة وحرب القـــوى الخفيـــة .. فالعرب كما لعلك رأيت فى حكايات وهب يعتقدون أنهم يحملون الى العالم رسالة ايمان ، ويعطون أبطالهم هذه السمة ، سمة المدافعين عن حق معين .. وهذا الحق يبـــدو فى بعض الأساطير مبهمـــا غامضا ، وهو فى البعض الآخر يأخذ جانب الكتب السماوية .. فهو مرة مع اليهودية وهو مرة مع المسيحية .. الا انه لا يحارب من أجل الشر أبدا . بل ان حروبهم دائما منذ مطلع ما يذكرون من أساطير تقف الى جانب رسالة ما بصورة دائمة .. وقد أتاحت لهم شخصية الرسول كل السمات التى يبحثون عنها فى أبطالهم .. فقد كانت معاركه كلها معارك انتصار لمبدأ ، ودفاع عن ايمان ،

وحربا ضد شرك وكفر .. كانت معاركه اذن صورة واقعية لأحلام اسطورية كثيرة راودت ذهن العربى وملأت خياله من قبل..

كان العربى يتلمس أبطاله فى اعماق التاريخ فى حياة التبابعة والجرهميين ، وكان يلبس أبطاله ثوبا معنويا يرتاح هو اليه ، ويطمئن الى أنه يمثل ما فيه من فضائل ، ويحقق نزعته الى البطولة المتكاملة .. وفى النبى تجسدت هذه الفضائل وتحققت النزعة البطولية المتكاملة . ولذا فالنبى (ص) يحتل فى هذه القصة مكان البطل ، ويمثل فيها جماع ما كان العرب يحلمون به من مثال لبطلهم الذى يحمل السيف دفاعا عن حق معين تسنده قوة جبارة تعينه على هزيمة المشركين . وتفتح أمامه الطريق وتزيل من أمامه العقبات ، بينما هو وقلة من رجاله يجالدون أهل الشرك الكثيرى العدد والعدة حتى ينتصر وينتصر معه ايمانه الجديد ورسالته الجديدة .. ومحمد بعد منهم ما فى ذلك شك يرفعون نسبه الى اسماعيل محققين فى كل أب من أبائه رابطين سلسلة النسب النبوى بمجموعة من الأعمال التى تمهد للبطولة الكاملة عند محمد .. ويقول ابن هشام فى الجزء الأول من السيرة : « فرسول الله صلى الله عليه وسلم أشرف ولد آدم حسبا ، وأفضلهم نسبا من قبل أبيه وأمه صلى الله عليه وسلم » ومن الأحاديث التى نسبت اليه (ص) أنه قال : « ما ولدتنى بغى قط منذ كنت فى صلب آدم ، فلم تزل تنازعنى الأمم كابرا عن كابر حتى خرجت فى أفضل حيين فى العرب : هاشم وزهرة » .

والواقع ان السمة الأولى فى أبطال العـــرب اتصال نسبهم اتصالا واضحا لا خلل فيه بآدم ، فالشرط الأساسى للبطل العربى أن يكون شريف النسب ، صـــحيحه ومتصله .. وفى كتاب وهب وكذا فى كتاب عبيد لن تجد بطلا تاريخيا واحدا لا يذكر لك المؤلف نسبه الذى يصله بآدم .. وكأنهم يجـــدون فى شرف نسبة بطلهم شرفا لهم أجمعين ..

وأحب هنـــا أن ألفت الى ظاهرة هامة متميزة ، ذلك أن أبطال العرب قبل الاسلام كانوا جميعا من عرب الجنوب أى من اليمن .. بينما محمـــد يمثل البطـــل الحقيقى الأول من عـــرب الشمال .. ولذا فقد كان احتفال الشماليين بظهوره احتفالا خطيرا وهاما .. فقد ظلوا يتناقلون بطـــولات اليمنيين باســـتمرار حيث كانت الحضارة والمدنية ، وعزاؤهم إنهم بعد عرب .. أما وقـــد ظهر فيهم بطل شمالى نسبا وحسبا فلا عجب أن استعاضوا به عن غيره من أبطال أساطيرهم القديمة.. وأنت تعرف هذه المحاولة العصيبة المظهر التى وردت عند عبيد بن شرية الذى أراد بهـــا وهو اليمنى أن يضيف هذا البطل الشمالى الى قومه فيقـــول : « حتى كان اسماعيل ونقله أبوه ابراهيم صلى الله عليـــه وسلم من بلاده ، فأنزله بمكة .. فكنا نحن جرهم أهل البلد والحرام ، فنشأ اسماعيل بيننا وتكلم بكلام العربية وتزوج منا .. فجميع ولد اسماعيل من بنت مضاض بن عمر الجرهمى . واســـماعيل وأبوه منا ، وأنتم يا قريش منا ، والعرب بعضها من بعض ..

الم تعلموا انكم من ولد اسماعيل بن ابراهيم صلى الله عليه وسلم، وابراهيم نحن ولدناه وأبوه آزر واسمه تارخ بن ناحور بن أرغو ابن شارخ بن فالغ بن عابر ، وهو هود ، فهو أبونا وأبوكم ، فنحن ولدناكم وأنتم منا ونحن منكم قليل فى كثير » ..

هذه المحاولة من جانب عبيد تبين اهمية ظهور هذا البطل الشمالى عند العرب .. وهو كراو يمنى يحاول ان يمزج البطولتين بعضهما ببعض ، بطولة النبى الشمالى ببطولة اليمنيين الذين امتلأت اساطيرهم بأكثر من بطل .

والواقع أن البطل العربى تتجمع فيه سمات هامة : أولها اتصال نسبة بما يثبت عروبته وشرفه واهمية آبائه جميعا .. وثانيها دفاعه عن مبدأ وعقيدة ، وايا كان هذا المبدأ وتلك العقيدة فلابد ان تكون خيرة مؤمنة .. وثالثها أن تسنده قوة غيبية خارقة تثبت صحة ما يدافع عنه من مبدأ كما تثبت أهميته هو فى عالم الأبطال الخالدين ..

هذه السمات تجدها فى كل ابطال وهب وعبيد ، فليس منهم الا كل ملك يتصل نسبة بآبائه من الملوك حتى يصل الى هود ومن هود الى آدم .. وكلهم يدافعون عن الايمان سواء كان هذا الايمان هو التوحيد بعامه أم هو دين من الأديان الكتابية .. وكل منهم له قوة غيبية تساند خطاه ،ولعل هذا أوضح ما يكون فى قصة ذى القرنين الذى يأتيه الوحى من احلامه أو من ارشاد رفيقه الخالد الخضر . بل ان معظم ابطال اليمن ان لم يكونوا ملوكا فهم

انبياء سخر لهم الجن والانس والرياح والوحوش كسليمان بن داود او كصالح النبى أو هود نفسه ..

وفى محمد (ص) اجتمعت هذه الصفات .. وقد حدثتك عن نسبه ، وانت تعرف رسالته ، بقيت القوة الخارقة وهى السمة الثالثة فى البطل العربى ، وهى نفسها التى ستفسر لنا فى بساطة ويسر ما امتلأت به كتب السيرة من أحداث خارقة تنسب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وانت قد ترفضها عقلا ، وقد تنكرها دينا ، ولكنك ستعرف سببها فى كتب السيرة حين تعرف انها تحقق شرطا جوهريا من شروط البطل عند العرب .. فقد كان من الطبيعى اذن أن تضيف هذه الكتب الى الرسول كبطل كل علامات التأييد الغيبى كالملائكة التى تحارب فى صفوفه ، وكمعرفته لما يدور فى الخفاء ، ثم صور ايمان الناس فى مختلف العصور والأزمان به وبرسالته ، الناس والجماد أيضا .

وهذا كله يمثل السبب الثالث فى اتخاذ السيرة شكل القصة وهو سبب كما ترى نفسى يتعلق بتصور العرب لأبطالهم ، وبحاجة العرب الى بطل جديد يجمع سمات الدين الجديد الذى آمنوا به، ويجمع فى نفس الوقت سمات أبطالهم القدامى ومميزاتهم ..

فالأسباب كما ترى هى أولا أن النبى وسيرته كان فيهما الغناء عن السير الجاهلية لشعب آمن به وبرسالته . وهى ثانيا أن العرب منعوا فى القرن الأول للهجرة من رواية أحاديث الرسول فوجدوا فى السيرة متنفسا لتداول أحاديث الرسول وحكايات

حياته . وهى ثالثا أن محمدا كان شماليا يمثل البطل الجديد الذى يجمع فى نفس الوقت سمات البطل العربى فى كل مراحل التاريخ الأسطورى للعرب ..

وهذه الأسباب المتداخلة المتشابكة يضاف اليها سبب جوهرى هام وهو حاجة العرب الى زاد من القصص باستمرار — وقد اثبتنا من قبل أن ادبهم الأساسى كان هو القصة ، وان مجالس أسمارهم لا يمكن أن تخلو من القصص ؛ وقد نهى الاسلام عن الجاهلية وسيرة أهلها — فكان لابد من البحث عن مصدر جديد للقصص والأسمار .

والسيرة النبوية بهذا تقف مكرحلة انتقال بين الشكل القصصى الذى عرفه العرب قبل الاسلام وبين شكلها الذى تطور فيما بعد الى القصص العربى الاسلامى .. فالذى لا شك فيه ان السيرة قد اثرت فى القصة العربية تأثيرا ضخما وكبيرا .

وانت لن تجد قصة عربية بعد هذا الا وهى تبدأ بنسب البطل وقبيلته ، واتصال هذا النسب وصحته ، واهمية تلك القبيلة وخطورتها .. ثم لن تجد قصة بعد هذا الا وبطلها يدافع عن حق وقضية ، ويحارب شركا وكفرا .. ثم لن تجد بطلا لا تؤيده قوة غيبية تسدد خطاه وتعينه . فكأن السيرة كانت قمة للأعمال القصصية قبل الاسلام ، تبلورت فيها كل مميزات القصة العربية لتغدو بعد هذا مصدرا للفن القصصى عند العرب .

فسيف بن ذى يزن البطل الأسطورى يتصل نسبه من

التابعة حتى هود ثم آدم ، وهو يدافع عن الايمان والتوحيد بصورة عامة ، ويحارب الشرك والكفر بصورة عامة ، وان كان فى كثير من الأحيان يحدد صورة الايمان بأنها دين ابراهيم الخليل .. وهو مؤيد بالجن المؤمن ومجموعة من الطلاسم التى تفتح له كل مغلق ، بل هو مؤيد بقوى مؤمنة صالحة كالخضر الذى يظهر له اكثر من مرة وكغيره من الأنبياء الصالحين الذين ينتظرونه ليهدوه سواء السبيل .

وعنترة يتصل نسب أبيه ونسب قبيلته بنى عبس لتغدو اشرف قبائل العرب ، فاذا ما استمرت القصة قليلا اكتشفت ان امه بنت ملك الأحباش فهى رغم كونها امة فى بلاد العرب الا انها شريفة النسب ، بل هى اكثر الحبشيات عزة ومكانة.. وعنترة قوى قوة خارقة وهبها له الله تجعله يفوق البشر جميعا وقت الصدام .. وحين تعوز المؤلف رسالة يضيفها الى عنترة فهو يقول ان عنترة سلط على العرب ليقضى على كل جبابرتهم قبل الاسلام ليمهد بهذا للنبى ، فما يظهر الا وقد قتل عنترة كل جبار يخشى على الرسول منه .

وكما اثرت السيرة فى القصة العربية من بعد فكذلك اثرت فى الحديث النبوى . فقد انتشرت هذه الكتب وكأنها تحوى علما حقيقيا لا جمعا اسطوريا لما سبق الرسول من أحداث ، ورواية قصصية لأحداث حياة الرسول .. وهكذا دخل الحديث الشيء الكثير من الاسرائيليات والوضع .. فأنت ترى أن مصادر

هذه الكتب كانت رواة الأخبار كوهب وعبيد وغيرهم كما كانت الكتب المختلفة التى تتناول أساطير العرب وحكاياتهم ، بل انت ترى أن من العاملين فى تدوين السيرة مؤرخون لأساطير العرب كوهب بن منبه نفسه .

ولعلك تستطيع الآن أن تدرك سر كلمة الامام احمد بن حنبل التى أوردها السيوطى فى الجزء الثانى من الاتقان اذ يقول : « ثلاثة ليس لها أصل : التفسير والملاحم والمغازى » .

أما التفسير فلأنه استمد معظم مادته من كتب السيرة وما تحكى من قصص وحكايات .. وأما الملاحم فقد رأيت معى عند الكلام عن كتاب عبيد أنه روى على لسان تبع الأوسط ٦٩٤ بيتا تحكى حياته وأعماله ويمكن اعتبارها بعد جمعها ملحمة كاملة ؛ وهى كما ترى من النظرة الأولى موضوعة ولا شك ، فتبع لم يكن يعرف العربية التى كتب بها الشعر المنسوب اليه .. أما المغازى فقد كتبت كما رأينا كعمل قصصى يمثل الامتداد لما عرف العرب من قصص،فلم يكن القصد من تدوينها العلم والتاريخ بقدر ما كان القصد من تدوينها الفن والامتاع ، وتحقيق الصورة الكاملة للبطل العربى كما تصوره كتاب هذه المغازى ..

كلام أحمد بن حنبل اذن صادق صدق كلام الخبير العارف، وهو فى نفس الوقت دليل على صدق ما توصلنا اليه من نتائج بشأن هذه الكتب .. أعنى كتب السيرة ..

وكتب السيرة كما رأينا تمثل الركن الثالث فى أركان القصة العربية فى هذا العصر الذى أسميناه بعصر التجميع .. فهى تمثل النوع الذى يعنى بأحداث تتعلق بفرد واحد ، وهو الرسول صلى الله عليه وسلم ، سواء كانت هذه الأحداث قد أخذت مكانها قبل مولده أو بعده .. الا أن هذه الكتب فى الوقت نفسه تعتبر مرحلة الانتقال بين عصر التجميع هذا وبين عصر التدوين الذى يليه .. فهى قد استفادت من الركنين الآخرين فى عصر التجميع وأخذت منهما كل ما يمكن أن تأخذه ليتكامل لها الشكل القصصى . وهى قد أضافت الى كل هذا تقاليد جديدة الى العمل القصصى العربى تظهر آثاره فيما جاء بعدها من أعمال .. ثم هى تروى فى جزء كبير منها أحداثا واقعية شهدها أكثر من واحد ورواها أكثر من واحد ، وأعنى حياة الرسول (ص) فهى والحالة هذه نقله الى الكتابة عن معلوم معروف ، لا رواية مصاغة عن روايات قديمة معروفة وحسب ..

وأحسب أنه من المفيد لنا أن نقف وقفة صغيرة عند أحد هذه الكتب نتعرف عليه تعرفا واضحا ، وأحسب أن أقرب هذه الكتب الى اكتمال الصورة سيرة ابن اسحاق التى نقلها ابن هشام ، وحققها لنا وقدمها للمطبعة العربية فى أربعة أجزاء الأساتذة : مصطفى السقا وابراهيم الابيارى وعبد الحفيظ شلبى تحت اسم السيرة النبوية لابن هشام ..

* * *